قرأتُ العددَ الماضي من "الآداب"

بقلم
انطون غطاس كرم

ليكن ما تشاء ، يا صديقي الدكتور ادريس ، لقد أسأت الاختيار ، وعليك وحدك تلقي التبعات . وما دريتُ الحكمة من هذا الباب توردُه على التوالي . إن كنت تبتغيني قارئاً ، فإني – وحقك – مستعرضٌ معظم ما تنطوي عليه «الآداب» منذ ظهورها ، بعد ان جفّ اليراع السويّ وانقطع التحبير النبيل عن المجلة الادبية ، وانتابت الفن عدوى الصحافة السريعة.

أو كنتَ تريدني ناقداً فالأقلام التي وكلتَ أمرها إليّ قد انسرَت فيها الكلمة المكوكبة . أما الفكر في المقال فشأنه لمسُ الخاطرة على غير استقصاء ، وإثارة المسائل على غير استنفاد .

أو كنت تبتغي ان يستمرّ بي عددُك الماضي في عددك الآتي وان تلمس صِقال المذاق في فم قرائك . بعدما قرّبته، على طبق « الآداب » ، من فنون الأطعمة ، فانك ظالمي : وانا بطيء القراءة المفصّلة حملتني على التسرع حيث ينبغي الاستبحار.

★

وأستعرض الفهرست ، فاذا بي امام جمهرة فوضوية من الابحاث ، والقصص ، والانشاد الوجداني ، وانباء تعرض وتحلل وتناقش ، وتداور ، وتعقّب وتتزلج في اللجّة العرمة مسرحية بيراندللو . أما كان أرأف بالقارىء ان تنقسم « الآداب » على غرار المجلات الادبية الاوروبية ، يتهافت فيها القارىء على الفن الذي يستهويه من فنون طعامك ؟

وأقف هنيهة عند المقال الاول «نسينا عدواً للأدب» يحاول فيه الاستاذ رئيف خوري ان يكشف عن مبدإ السببيّة في انهيار انتاجنا الادبي . وتنبسط شبكة العلل يسردهـا سرد الامر المنتهي . لينحصر الكلام في واحدة : ذلك ان ادباءنا آثروا السهولة في العمل الادبي القصير السريع ، واقتصروا عليه ، حتى كادت اعمالهم «ترتجل ارتجالاً» — فلا أناة ، ولا محاسبة ، ولا قلق في سبيل انتاج فنيّ أفضل: انهم لم يعنَوا «بالتكنيك» الفني .

ألا رأى صديقي معي ان الأدب ازياء ، واننا في مطلب اللذة السريعة ، والغنى السريع ، وانهم أرادوا الفن سريعاً لبلوغ الشهرة السريعة على حبل الحياة المقتضب ، فملأوا الصحف بما يصنعون في ساعة من الدهر ، وكان القدماء ينفقون الدهر في انتاج ساعة ؟ حتى كأن الأناة والجهد المتراكم شرطٌ من شروط البقاء الثابت . ألا رأى معي أناة الطبيعة في صنع الاثمار والاصداف وماهي عليه من كمال الشكل واللون والحجم وما بذلت الطبيعة من دهور لتستوي الاصداف في جمال المعجزات . بينما يتهافت ادباؤنا على بلوغ النهاية في العمل الفني قبل ان تتم الخطوات الضرورية التي تقودهم الى نهاية النهايات . كأنما الزمان يزن الطاقة التي بُذلت في سبيل العطاء الفني ، وكأنما يطول الخلود بنسبة الجَلَد والألم المختمرين .

ألا يرى صديقي معي ان « التكنيك » الفنيّة نفسها ، لن تستوي ما لم يحصل تجاوب بين الاديب والمجتمع ، بحيث يستحيل المجتمع فوّارة معطاء في قدس اقداس العبقري ، وفي تجارة الفكر تتسع سُنّة الاخذ والعطاء ، وتتجدّد امكانيات اهل الفن ، وتنفتح امامهم آفاق المعاني حتى اللانهاية . لقد تغنينا بالينابيع والظلال والربيع والخريف ، واستنفدت من صدورنا المعاني ، ولم تتوفر لنا ثقافة انسانية عميقة خصبة ، توجّه ادباءنا ، وتجدد فيهم طاقة العطاء . نحن نشأنا على نغمة الازجال الساذجة ، وفي ارجوحة الفصول ، ونشأ الاوروبيون على فن الاغريق وفلسفتهم ، على اوتار بيتهوفن وفاغنر ومتاحف النهضة ، ومسرحيات شكسبير يتثقفون على غير إجهاد وحَصَر .

لقد دخلنا مرحلة الملل من موضوعاتنا المتكررة على غير طائل تُزخرف اللفظ وتُهمل الجوهر الانساني الذي يجمّل اللفظ ويبعث فيه حرارة الحياة والبقاء . اين هي الغزارة التي تفرغ ذواتنا على الكون بما فيه ؟ اين هي هذه الحركة الدائرية الدائمة التي تضع لنا مقاييس في الفن جديدة ، وكلما اعطينا حملتنا على الوثب الى مستوى جديد أرفع وتضخمت في نفوسنا حاجة العطاء الفني ؟

اين هي المجالات الانسانية؟ وما هي الابعاد الموسيقية المتنوعة التي تحدثها قيثارة ذات وترٍ واحد ؟

★

وفي مقال « الشعر العامي اللبناني » عودة الاستاذ مارون عبود الى استكمال ما نشره في عدد ايلول ، وما سيتبعه في العدد المقبل .

ولئن طاب لي ان أتمادى في الكلام على أديبٍ كمارون عبود جعل اللمحة عمقاً ، وازدان بالظرف المطبوع اسلوبه ، وبالطرفة الحلوة ، فإنما يستلزمني الوقوف على موضوعه جهداً يعجزني ، ذلك ان مدار الكلام : العلاقة بين الزجل اللبناني والغنـــاء السرياني الديني . وهـذا يدخل في احدث المذاهب النقدية في الأدب المقارن . ويرتكز العلامة على « ميامر مار افرام ومار يعقوب » التي كانت تنشد في الكنائس . ويذهب الى ان هذه « السواغيت » هي ينبوع الشعر العامي حقاً . ويعود الى الشاعر رشيد نخله فيجعله « مسترال » لبنان ، وكنت أود لو أنه أتيح لناقدنا البصير ان يحاول كشف العلاقة القائمة بين هذين الشاعرين ، ليتضح ما أبهم ، وتنضبط بذلك معرفة المتدرّج مثلي .

وفي مقال رزين يرسم الدكتور اسحق الحسيني لوحة سريعة الخطوط تطل بوجه المرحوم «خليل السكاكيني» . ويرتسم الفقيد من اصحاب المذهب العقلي الانساني ، استنتاجي الدورة الذهنية ، مرتهف الحسّ ، مثقفه ، ميالاً الى الظرف ، حُراً ، أنوفـاً ، تساوى فيه الجوهر والمظهر — يونانياً سقراطياً .

وحلا للعلامة ان يتناول جانب الانسان الذي كانت تتفرع ذاته في ذوات البشر من عارفيه ، فلم يُعنَ بسائر الزوايا ، إذ شغل بالرجل عن انتاجه ، وبالانسان عن الاديب المفكر الثائر الشاعر على جَيَشان الخاطرة (موت امرأته) ، حتى اذا انت طلبت «السكاكيني» الأديب لم تلق منه في المقال الطريف الذي وزنت الفاظه بموازين الحجارة الكريمة — غير تقويم علمي لمؤلفاته . إن لهذا الفصل بين الأديب وانتاجه ما له من أخطار .

ولقد ألقى صاحب المقال على شخصية « السكاكيني » شعاعاً رقيقاً ، — ولا بدع — فهو من صحبه . وقد يتوفر للمعاصرين ان يصوروا شخصية الأدباء الذين عايشوهم مما لا يتوفر للخلف وكأنها سنة في الأرض فكلما اتسع فاصل الزمان بيننـا وبين الادباء أُتيح لنا ان نفهم آدابهم فهماً اعمق .

أضف ان شخصية الأدباء إطلاقاً ، أغنى واغزر من الجنبات التي تتراءى منهم فيما ينتجون ، ولكن الزمان لا يبقي عليهم من اجل ذلك . وانما الذي يعني العصور الآتية هي الرائعة الفنّية ، من حيث هي . ألم يكن من الأبين في تعريف « السكاكيني » أن تنجلي شخصيته في أدبه ، بأكثر من انجلائها في حكاية المعلم البكير يحتسي الخمر في « الكتّاب » ، وفي روايته يوم « بصق على الدنيا مرة من طائرة زراية بالنفوس الصغيرة » ؟

غير أنه يذكر « أن أدبه الذي صور نفسه الانسانية النبيلة عاش معه ، ومات معه . »

هذا وصاحب المقال ممن ادركتهم دراية اللفظ المحكم في المقال العلمي ، يضعه في مواضعه اثقالاً معنوية ومدلولات ضيّقة ، نظيماً على القدر المقصود . غير انك تقع هنا وثمّ على فواصل ضائعة الدلالة ومميزات يشارك فيها السكاكيني معظم مخاليق الله . كمثل قوله « وكان في شبابه من فرسان حلبة الرقص » بعد أن كان ألمع الى براعته في الموسيقى والعزف على الكمان .

والاستاذ العلاّمة ممن يعتمدون « الشرطية التكهنية » في النقـــد ، وذلك مـــا يخرج عن طبيعـــة النقـــد الموضوعي العلمي . إذ يصبح الحكم النقدي مرتكزاً على افتراضية كثيراً ما لا تلاقي واقعها . كمثل ما نصّه : « ولو لم يتنكر له الزمن مراراً ويرده على اعقابه في كثير من الاتجاهات الجزئية لكانت نهايته من طراز الكتاب الغربيين امثال برتراند رسّل ، وجوليان هكسلي ، و هـ . ج ولز . الخ .. (ص ٦) »

وفي موضع آخر : « لو ظهر السكاكيني في أمة تعرف للمفكر مقامه ، وفي ظروف تكتمل فيها المواهب ، وفي احوال تكون فيها تكاليف الحياة هيّنة يسيرة لرأينا فيه كاتباً من طراز الكتاب الغربيين المبرزين (ص : ٨) » فترى أنه استوثق المبدأ «الشرطي» فكرره .

ناهيك أن العبقرية وان كانت بنت المعادلة الاجتماعية ، فهي تبقى شذوذاً فردياً في هذا التفاعل الاجتماعي . والسببيّة المحتومة لا تنطبق انطباق الناموس العلمي على ابناء عبقر قاطبة . فالمسببات الواحدة لا تلقى في أهل الفنّ نتائج واحدة ، وإلا لتساوى اهل العصر الواحـد ، والبيئة الواحدة في المذاهب الفنية اطلاقاً ، وقضي على التنويع .

وبقلم الدكتور شكري فيصل مقال في « واقع الاذاعـة العربية » كتبه على اثر انعقاد المؤتمر الاذاعي في القاهرة . وفيه من العمق والطرافة ما أخرج الكاتب عن حدود العرض الاذاعي الآليّ ، فجعله مظهراً من مظاهر المشكلة العربية . وهو يرى باحساس الخاصة المثقفة ان ليست العلة في عجزنا عن تسخـــير الامواج والاطوال ، وانما العلة في « كيفية » استخدامنا لهذه الآلة التي سخرت لخير الانسان ؛ العلة « داخلية » قوامها هذه **المعادلة العقلية الانسانية** التي بها سنطل على الشعوب الناعمة بالمساواة ، المستظلة بالعدالة ، العائشة في كنف المعرفة ، عـلى نحو ما يقول . فماذا تُرانا نقول لهذه الامم والشعوب ؟

لقد جعلت الاذاعات العربية من هذه الأداة « صنـدوق اغان او « قصة غرام » وكان أحرى ان تُجهز جوهر هـذه

الاداة بما يرفع مستوى الشعب، وبما تنفتح امامه الحياة الفكرية والفنية في المطلق . أليست هـذه الأداة — وايم الحق — اشد الادوات فعالية ، تنبثّ في الشعب على مختلف طبقاته تثقفه ثقافة إرادية او غير إرادية، وترفع ، من حيث لا يدري، وباستمرار، من حيث لا ملل ، مقاييسه . وتصقل فيه الذوق وتعزز المعدن العقلي ؟ اما جعلناها مفسدة للذوق ، وسجناً إجبارياً يشوه فيه الفكر ، وطريقة صينية في تعذيب النفوس والاسماع ؟

إلا أن الدكتور فيصل يقف عند هذا الحد النقدي الهدام، يشعر ، على نحو ما يسود الشعور ، بموضع العلة ، ولا يتمادى في الكلام البنائي **المفصّل** على العلاج التعميري الموجه .

ويستميلني مقال عبدالله عبدالدائم في « نفسيات نموذجية » وقد اعتمد قصة « نيتوتشكا » لدوستويفسكي يحلل جنباتها في منحى نفساني استقصائي. وهذا الاتجاه النفساني في دراسة الآثار الأدبية يعتبر ، الى جانب البحث الجمالي الصرف في الاخراج ، أحدث الأساليب النقدية المعاصرة، ما دام الفن فيضاً من الأعماق الانسانية في هنيهاتها الخلاقة . وفي هذا المسلك النقدي توجيه للقارىء ، وفيه دعوة الملهمين في الفن الروائي الى الانطواء على ذواتهم ، وتأملها ، وتأمل أبطالهم ، ليخرج أبطالهم من الحيّز النسبي الى الملأ الانساني الذي لا يحده زمان أو مكان . بحيث باتت رواية الكاتب الروسي مصدراً لدراسات علم النفس ، وينبوعاً نموذجياً للعلامة « فرويد » و « آدلر » . .

هذا هو العمق الذي غاصت عليه الآداب الاوروبية ولم نصب منه في ارضنا إلا نتفاً هاربة إذ شغلنا بحلاوة الاخراج ، ناعم الايقاع ، او جزله ، عن هذا الاستنفاد في تشريح الذات الانسانية . وبذا كانت آدابنا الحديثة — في معظمها — عبيراً عارضاً يتلاشى في الفراغ بعد حين . إنا لم نفهم الانسان .

وعندي ان المقال في بابه من ذوات الوزن .

ويعالج يوسف الشاروني فكرة الشهر حول « الفنان والصراع » ينشىء فيها ان الفن بدءاً كان تعبيراً عن حياة اجتماعية ، ثم نحا الفردية ، فأضحى ذاتياً . على انه — رغم صفته الذاتية — احتفظ بصبغة اجتماعية لا يسعه عنها انفصال .

ثم ينتقل الى الغريزة الجنسية واثرها في الفنان ، والى الحرمان المعتدل باعتباره ينبوعاً من ينابيع الألم ، والألم مصدر للعبقرية. ويتراءى لكاتب المقال ان الرجل السويّ الذي توازن بين فرديته ومجتمعه لا يجد دافعاً الى القيام بعمل فني !

وقد نسلم بمبدأ الحرمان « المعتدل » باعتباره يلاقي الواقع الابداعي خلال العصور جمعاء . اما زعمه ان الرجل السوي الذي لقي التوازن بين فرديته ومجتمعه لا يجد دافعاً الى القيام بعمل فني ، فمبدأ اعتباطيّ ينزع من تاريخ العبقرية البشرية مياردا كأرسطو ، وعملاقاً آخر « كغوته » .

ولصالح جواد الطعمه مقال بعنوان « شعرنا المعاصر يواكب النهضة الحديثة » يشتمل على ثلاث نقاط : ١ — موقفه من الدكتور محمد مندور ونظرية الفن للفن ، وهو يستنكرها . ٢ — اثباته ان شعر النهضة واكب الحركات التحررية . ٣ — ان الشعر المعاصر قد تحرر من اوزانه التقليدية وخطا «خطوات طيبة » في هذا الاتجاه (شعراء المهجر) .

اما موقفه من نظرية الفن للفن فيستلزم من المناقشة ما لا يتسع له هذا المقال ، لكونه يثير تحديد « الغاية » التي من اجلها وضع الفن .

واما اثباته ان شعر النهضة قد واكب الحركات التحررية ، فالرد عليه ان تطورية التاريخ قد قذفت بالعالم العربي من انفصاليته الى قلب الازمة ، الى دائرة التاريخ الانساني . فإلى أي حد كان أدبنا صدى لهذا الانتقال الى الازمة الانسانية الكبرى ؟ واين هي المشكلة الكبرى التي ساهم في اثارتها ، وتركيزها وحلها؟

بقيت في النثر قصة «العود المسحور» لوداد السكاكيني . وهي من النوع الايحائي في القصص القصير تقوم على توليد جوّ يبدل في الحالة التي تكتنف القارىء، وينتشله من وضع نفساني الى وضع .

وتنقاد إثارة هـذا الجو لقلم حلو الرنين غرزت فيه اللقايا الشعرية ، وتمايلت فيه طواعية الكلمة على هواه . بحيث إن الجو المقصود لا يندفع اندفاعاً ، بل ينساب سرياً ، قريراً ، لا عنف فيه ، ولا قسر ، ولكنّ « الصمم القصصي » يفتّ في غمرة هذا الجوّ ويلاشي بعضها : كأن تستبحر الكاتبة في وصف الشجرة، وصورة الشيخ يوسف استبحاراً يستغرق نصف القصة او يكاد، فيلامسك منه شيء من الملل او يكاد . وتتكور الفواصل احياناً على غير طائل ، وتسرد الحوادث، هنا وثمّ ، وقد تبطنت بالكلفة تشدّ شدّاً ، واكتنفها الفتور . واكثرها من نوافل القصة يثقل الجوّ ، ولا يزيد في هيبة سحره .

و « اصوات الليل » — قصة جديدة بقلم جبرا ابراهيم جبرا من جامعة هارفرد ، بالولايات المتحدة . ولعلها أعمق ماينطوي عليه عدد تشرين الأول . وقد اعتمد الكاتب فيها حواراً على

النشاط الثقافي في الغرب

روسيا

تمثيليات غوركي على المسرح *

لم يغب اسم مكسيم غوركي، في يوم، عن لوحات الاعلانات في مسارح موسكو . ففي كل عام تشهد العاصمة عدداً من مسرحيات غوركي يعاد تمثيلها بلا انقطاع في مسارحها . ويكاد ذلك يعني دائماً لا « مجرد ليلة افتتاح اخرى » ولكنْ حدثاً كبيراً في حياة المسرح السوفياتي .

(*) راجع مجلة الادب السوفياتي ، العدد السابع ، سنة ١٩٥٣ . والمقال بقلم إ.خولودوف E. kholodov ، وقد اكتفينا هنا بترجمة القسم الاول منه ، ويدور فيه الكلام على مسرحية « ييغور بوليتشيف وآخرون » م . ب

وكانت أبرز المسرحيات التي مُثلت لغوركي في الآونة الأخيرة ثلاثاً : ييغور بوليتشيف وآخرون Yegor Bulychev and Others في مسرح فاختانغوف Vakhtangov ودوستيغاييف وآخرون Dostigayev and Others في مسرح ييرمولوفا Yermolova ، وفاسّا زيليزنوفا Vassa Zheleznova (النسخة الثانية) في مسرح مالي Maly .

وهذه المسرحيات الثلاث التي كتبت خلال العقد الرابع من هذا القرن والتي كانت آخر ما أخرجه غوركي في هذا اللون من الأدب إنما تتوّج ، بحق ، نتاج هذا الكاتب العظيم في دنيا المسرح .

وحين نُشرت « ييغور بوليتشيف » أول ما نشرت كتب فلاديمير نيروفيتش دانتشينكو، احد مؤسسي «مسرح موسكو

الطريقة الاغريقية أتاح له التعرض لعدد من المشاكل الاجتماعية والفنية والسياسية —قل الحياتية الشاملة— . وليس اطوع من اسلوب الحوار لاثارة هذه الألحان الانسانية على متفرعاتها وتنوّعها . إلا أن هذا الحوار الجميل الذي أسبغ على القصة عمقاً ، واثقالاً فكرية واعتراضات فلسفية هو بذاته من رواسب القصة يبتر حوادثها ، ويحول مجرى اللذة من القصة الى الحوار من حيث هو. فالاستاذ جبرا لم يكتب قصة في حوار ، بل اراد حواراً في إطار قصصي وهو ممن يجيدون طريقة اللف والدوران التي يتولد بها الفكر من الفكر ويداور في رياضةٍ ذهنيّة خالصة .

★

اما الشعر في هذا العدد فمختلف الأغراض : منه الثوريُّ على طريقة ابي العلاء ، وفيه رنّة ابي القاسم الشابي، كما يستشف من قصيدة سعد دعيبس « من الحارة والى الحارة . » ، وفيه الرمزي الايحائي يعوزه شيء من الضوء يخفف من العتمة الشعرية وشيء من العناية في صياغة يبلغ معها صفاء الكلم كاسقاط بعض حروف التشبيه ، واستخدام « النعت » المبتذل الذي بُحّ فيه الصوت ؛ كقصيدة « موت الفلاح » . ومنه المنثور ، خطابي اللهجة ، « توراتيّ » الايقاع؛ (غادة يافا—لمحمد الماغوط) ؛ ومنه الحزين الكسير الهوائي الذي على مذهب « فرلين » وفيه نفور وجودي من واقع الحياة كما في قصيدة « الحزن » لصلاح الدين عبد الصبور ، ومنه القومي البطولي لسليمان العيسى . ومنه ما ينصبّ جاماً من اللعنات تفيضُ عن فورة الدم الثائر كقصيدة علي الحلي أحد اعضاء رابطة الادب الجديد (يا فلسطين) ؛ وفيه الرومنتيكي بما يبطنها من سويداء ، وصور ، وذكر ، كما ترى ذلك في قصيدة « الربيع في القرية » لمحمد فوزي العنتيل أحد اعضاء « رابطة النهر الخالد » في القاهرة ، وفي قصيدة نمر عارف الزناتي « حفنة حقيقة » .

وفي هذا العدد أخبار في النشاط الثقافي عندنا ، وكلام على هذه «الهمزة» تتجاذب صورتها أذواق الادباء ، ولما كانت الهمزة حرفاً كاملاً صحيحاً صدق اعتبار الاستاذ رشاد دارغوث إن كانت الغاية «تسهيل الكتابة» . وأذودُ عنها بالردّ على الاستاذ عثمان : أياً كانت صورة الهمزة فعلينا — يا صديقي بهيج — الاعتراف بواقع لا مفر منه : اننا ، اذ نقرأ العربية على خلاف قراءتنا للغات الاوروبية مثلاً ، نفهم اولاً ، ونقرأ ثانياً ، قراءة صحيحة .

★

نجني — ربِّ — فاني تائب عما صنعت ، ولن اعود الى مثلها ثانية .

انطون غطاس كرم